آليات الخطاب الاستشراقي في قراءة المتن اللغوي، كتاب سيبويه أنموذجا*

Mechanisms of Orientalism discourse in reading the linguistic text Sibawayh book as a model

ط د/ منية لوصيف

جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله(الجزائر)، (مخبر الخطاب الصوفي)

Mouna.lousif@univ-alger2.dz

ملخص:

اهتم المستشرقون بالعلوم العربية بكل تفرعاتها، حتى أصبحت ميدانا خصبا لمعظم الدراسات الاستشراقية، ولأغلب المناهج والنظريات الغربية في حقل الدراسات التطبيقيّة، ومن هنا كان للأدب واللغة الحظ الأوفر من هذه الدراسات، وهذا كلّه بغية تقديم قراءات متعدّدة ومعاصرة لأهم المتون العربية التراثيّة.

نعرض في هذه الورقة العلمية أهم القراءات الاستشراقية النظرية والتطبيقيّة لكتاب سيبويه بعد أن وقع بين أيادي المستشرقين، من خلال عرض آليات الخطاب الاستشراقي في الدراسات العربية (الأدبية واللّغويّة).

الكلمات المفاتيح: الاستشراق، المستشرقون، اللغة، سيبويه، الكتاب.

Abstract:

Orientalists were interested in the Arab sciences in all its branches, till it became a fertile field for most Orientalist studies, and for most Western approaches and theories in the field of applied studies, and language had the greatest chance in these studies, all of that is in order to provide multiple and contemporary readings of the most important traditional Arabic texts. In this scientific paper, we present the most important theoretical and applied Orientalist readings of Sibaway's book after it fell into the hands of Orientalists Through research into the mechanisms of Orientalist discourse in Arabic studies (literary and linguistic).

Keywords: Orientalism; Orientalists; language; Sibawayh; the book.

*

تاريخ استلام البحث: 2024/06/19	تاريخ قبول البحث: 2024/09/25	تاريخ النشر: 2024 /10/15

مقدمة:

توسعت الدراسات الاستشراقية الحديثة والمعاصرة لتشمل اللغة العربية وجميع علومها وآدابها، وفق منهج معين للتحليل والدراسة والشرح والنقد، فانكب المستشرقون وعلماء الغرب على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم العلمية على دراسة التراث العربي تحقيقا وترجمة من أجل إثراء المعارف الغربية وتوسيع منابع المعرفة، والاطلاع على ثقافة الغير في ظل العلاقة الثنائية بين الأنوية والغيرية، وحتى الآداب المقارنة التي تفرض هذا التلاقي والتلاقح المعرفي العلمي، فكرّس الباحث الغربي جهده لدراسة هذه العلوم العربية، لتظهر في الساحة الفكرية هذه الجهود على شكل مؤلفات تختلف بين الكم والكيف، وتتفق في الهدف والغاية. انقسم على إثرها المستشرقون إلى فريقين: منهم من كان مؤيدا لها معترفا بفضلها في تحقيق تراثنا، وجمعه وحفظه من الزوال والضياع. ومنهم من كان معارضا لهاو حجّتهم أنّ الاطلاع على تراثنا من قبل المستشرقين ليس حبا فينا وفي تراثنا العربي، وإنما لأهداف مبيتة وغاية مضمرة في نفس المستشرق ذاته.

يتيح لنا هذا البحث التطرّق إلى واقع الدراسات العربية في ظل الحركة الاستشراقية الحداثيّة، من خلال التعرّف على محدّدات القراءة المعاصرة للمؤلفات النحوية العربية عامّة وكتاب سيبويه خاصّة بين النظريّة والتطبيق. ومنه نطرح التساؤلات الآتية: ما الاستشراق؟ ومن هو المستشرق؟ وكيف خدم الاستشراق العربية وعلومها؟ وماهي آليات الخطاب الاستشراقي في قراءة النصوص التراثية العربية القديمة؟ وما هو موقف النقاد العرب من هذا الاستشراق وأهله؟

وفي الختام بعد البحث والدراسة والتحليل نشير إلى أهم النقاط والأفكار التي توصلنا إليها، وبذلك نكون قد أجبنا عن الإشكالية المطروحة والفرضيات الجزئية المرفقة لها، كما نقدّم مجموعة من النتائج والتوصيات رغبة أن تفتح هذه الدراسة آفاقا جديدة أمام الباحثين والدارسين في مجال البحوث الاستشراقية والحداثيّة للعلوم العربية مستقبلا.

1. الاستشراق دراسة في المفهوم والمصطلح

أ.الاستشراق لغة واصطلاحا

لغة: تكاد تتفق معظم المعاجم العربية على أنّ المعنى اللّغوي لمصطلح الاستشراق مشتق من الشرق والمشرق؛ عُرّفت في المنهل على النحو الآتي: "جاءت لفظتا شرق ومستشرق مقابلتين للفظة الفرنسية orient وorientaliste لوصف أهل الشرق أو الشرقيين وoriental هو الشرقي والمشرقي orientalisant لوصف كل متأثر بالشرق. أما الاستشراق فيعبر عنه بلفظة orientalisme التي لها أيضا معنى من حيث الأشياء الشرقية"[1]، وفي المعجم الوسيط اشتقت الكلمة "من أصل الفعل استشرق يستشرق استشراقا، واستشراق الأوروبي أي اهتم بالدراسات الشرقيّة بمعنى طلب علوم الشرق ولغاته،

وحركة الاستشراق تعني اتجاه الكتّاب."[2]ومنه فالاستشراق عامة هو التوجّه الفكري نحو الشرق والاهتمام بتراثه؛ تنظيرا وتطبيقا، دراسة وتحليلا وترجمة وتحقيقا وتدقيقا وحتى تأليفا. من أجل التعرّف على الحضارة العربية ومجمل علومها المختلفة.

اصطلاحا: اجتهد مجموعة من الدارسين العرب على تقديم مفهوم عام للاستشراق يتباين كلّ حسب وجهة نظره، منهم أحمد حسن الزيات يعرّفه على أنّه: "علمُ دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته وتقاليده ومعتقداته وأساطيره."[3] فيكون بذلك كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين وأمريكيين من دراسات أكاديميّة تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة والشريعة؛ وفي الاجتماع وفي السياسة أو الفكر أو الفن.[4]من جهة أخرى نجد المستشرقين في حدّ ذاتهم يعرفونه ويحدّدون موضوعاته وفروعه، **فاسمايلوفيتش** أنّ **الاستشراق** هو"التبحّر في لغات الشرق وآدابه"[5] من خلال تعلّم اللغات الشرقية مثل العربية والفارسية والتركية والصينية واليابانية، وفهم خصائصها وتركيبها ونظامها النحوي، وقراءة الأعمال الأدبية الشرقية مثل:المؤلفات الشعرية والنثرية، وفهم خصائصها وأساليبها. وكذا دراسة تاريخ الشرقيين وحضاراتهم القديمة والحديثة، وفهم تطورها وتأثيرها على العالم. أما **المستشرق رودي بارت** فيعدّه على أنّه "علم يختص بفقه اللغة الخاصة".[6] يحدّد موضوعه ويجعله لعلم فقه اللغة الذي يقوم أساسا على فهم اللغة العربية وخصائصها، ومستوياتها...ويفتح مجالا أوسع لفهم القرآن والسنة، والثقافة العربية ككل.

أمّا **إدوارد سعيد** فيجمله في مجموعة من التعاريف[7] المختلفة ضمّنها في أبحاثه حول الفكر الاستشراقي والمستشرقين وغاياتهم وهي:

- أسلوب للخطاب أي التفكير والكلام، ومبحث أكاديمي مستقل بدراساته وعلومه. ليكون كيانا له وجوده النظري والعملي.
- هو أسلوب تفكير يقوم على التميز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق" وبين ما يسمى "الغرب" هذا من جهة؛ من جهة أخرى أسلوب غربي للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه.
- هو مذهب معرفي عن الشرق، وشبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين.

تختلف تعاريف النقاد العرب والغرب على حد سواء من ناحية الدراسة والغاية منها وربطها بالجانب الأكاديمي المعرفي والنفسي الذاتي، وكذا والمناهج المتبّع فيها وآلياته خاصة في نقد **الاستشراق**، ولكنها تتفق في علاقة **الاستشراق** من الناحية اللغوية بالموقع الجغرافي الذي يتمحور حول الشرق، فالشرق جغرافيا يقابل الغرب، وبالتالي كان هذا الأخير مصدرا للدراسات العلمية والتوجهات التطبيقية. أما اصطلاحا فهو: حقل علمي معرفي، يلخّص محاولات النقاد الغربيين في الدراسة والتحليل

لكل مكنوناته، وذلك تطبيقا للمناهج الغربية ونظرياتهم المعاصرة على تراث الشرقيين ومؤلفاتهم المختلفة والمتنوّعة، ليكون بذلك الاستشراق مدرسة، وعلما ومنهجا غربيا معاصرا في آن واحد، وكذا سلاحا ذا حدّين يواجه الشرق في أرضه ويترصّد ممتلكاته الماديّة والفكرية.

ب.من هو المستشرق ؟

تتنوّع تعاريف النقاد العرب لهذه الفئة من الباحثين وتختلف، وكل تعريف منها يعبر عن موقف الناقد ونظرته لهم بعد متابعة بحوثهم وغاياتهم منها. يتقدّمهم محمود محمد شاكر الذي يرى: أنّ المستشرقين أهم وأعظم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوروبية لأنها جند المسيحيّة، فهم الذّين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر، ورضوا لأنفسهم أن يظلّوا مغمورين، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختفية وراء أكداس من الكتب مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها. وغاية المستشرق وهو ينظر في ثقافة أمة غير أمته إنما ينظر فيها لأمرين: إما ليكسب منها شيئا لأمته وثقافته يوظفها مستقبلا، وإما أن يناظر أو يناقش. وهو هنا مستشرق إيجابي. هنا يربط محمود شاكر تعريفه بهدف المستشرقين من دراسة علوم الشرق، ومدى اهتمامهم البالغ به.أما مالك بن نبي فيرى أنهم:"الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية."[8] يذهب في تعريفه هذا مذهب النقاد العرب عامة، في أصل تعريفهم العام أن المستشرق هو باحث غربي أكاديمي يدرس العلوم ويطلبها في أي أرض كانت سواء الشرق أو غيره. بعيدا عن ذاتيته.

يتفق معظم الباحثين العرب على أن المستشرق هو ذلك الباحث الغربي، المترعرع في البيئة الغربيّة غير العربية، المتشبّع بتلك الثقافة المعاصرة من نظريات ومناهج ومقولات حداثية، استلهمته علوم الشرق ليكمل فطامه بها، فأخذ مبحرا في ثنايا حضارتنا وثقافتنا، وحتى اقتحام ذواتنا المعرفية التي لم تسلم حتى هي منه أيضا. هدفه الاطلاع والإفادة والاستفادة تحت قناع ما يسمى **بالتأثير والتأثر** الحاصل بين الآداب العالمية والآداب المقارنة، بعد أن يسخّر **الاستشراق** كوسيلة للوصول إلى غاياته من هذا العالم العربي.

2.الدراسات الاستشراقية وتاريخ صلتها بالعلوم العربية

يعود تاريخ **الاستشراق** إلى الأندلس والنهضة العلمية آنذاك، ولثراء المكتبات العربية وضمّها أمهات الكتب ومتون العربية القديمة، ثم بعد ذلك ارتباطه بالحروب الصليبية ضمن دوافع استعمارية توسعية في البلاد العربية ليتأصّل وتنتشر جذوره مع الاستعمار الأوروبي في البلاد العربية الإسلامية مع بدايات القرن التاسع عشر.أمّا من الناحية التاريخية الاصطلاحية تحديدا "لم يظهر الاستشراق في أوروبا إلا مع نهاية القرن 18، فقد ظهر أولا في انجلترا عام 1779م، وفي فرنسا عام 1779م. كما أُدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838م."[9]هذا كمصطلح علمي. أما من حيث الشخصيات

العلمية والأكاديمية " فلا يُعرف بالضبط من هو أول غربي عني **بالدراسات الشرقية**، ولا في أي وقت كان، ولكن هناك إشارات لبعض الرهبان قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على يد علماء المسلمين في مختلف العلوم؛ خاصة في الفلسفة والطب والرياضيات. وبعد أن عادوا إلى بلدانهم نشروا تلك الثقافة العربية، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينيّة، واستمرت الجامعة الغربية تعتمد على كتب العرب وتراثهم الأدبي والعلمي وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون.

ظهرت البدايات الفعلية لتاريخ **الاستشراق** وعلاقته باللغة العربية مع دراسة القرآن الكريم كإسلام ودين وحضارة؛ ولم تكن إلا بعد شعور الدول الغربية أنّه يهدد دينها وحضارتها وشعبها في عقر دارها، فاهتدت إلى صدّ هذا التهديد بفهمه كدين ولغة بتكريس الكنيسة المسيحية بمن فيها لدراسته ولغته العربية بشرحها وتحليلها، وإعادة التأليف بها. ومنه فقد خاضوا وغاصوا في كل ما يتعلق بالدين وأركانه وعلومه التي استدعت منهم منهجا محكما للوصول إلى نتائج معينة.

حسب الدراسات والبحوث التي قدمها الدارسون العرب في تاريخ الاستشراق العام فقد مر بمرحتين[10] **الأولى**:" بعد سبعة قرون من الصدام الذي انتهى بإخفاق الحروب الصليبية، قائم على أفراد قلائل، إما طالب علم يتعلم من العرب المسلمين ليقشع الجهل عن نفسه وقومه مثّله بيكن وطبقته. **والمرحلة الثانية تبدأ** عند فجر اليقظة الأوروبية، فكانت بعثاته إلى دار الإسلام تعود من جولتها إلى أوربة لأداء عملين عظيمين هما: إمداد علماء اليقظة بمزيد مما وقفوا عليه من كنوز العلم، يفسرون لهم رموزها،ويترجمون لهم ما استطاعوا فهمه منها، ثم اطلاع رهبان الكنيسة على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين.[11] ولما جاء "القرن 13ه أدركوا ضرورة الاتصال ثقافيا بالحضارة الإسلامية وضرورة تعلّم اللّغة العربية وآدابها، بل والتسلّح بأفكار المسلمين في المحاجّة والردّ عليهم، وتعدّ هذه الخطوة بداية محاولات الأوروبية رسميا الاهتمام بالعربية."[12] ومن هنا ارتبطت **الدراسات الاستشراقية** باللغة العربية التي تمثل ركائز الهوية،وأهم لبنة لقيام الحضارات والثقافات، فحاولوا فهم اللغة العربية والإلمام بكل آدابها، ولم يتسن لهم ذلك إلا من خلال البعثات العلمية إلى البلاد العربية، وتعلم لغتها حتى يسهل لهم النهل والنيل منها والإبحار فيها" فكتبوا آلاف المقالات، ومئات الكتب، تناولت كل ما يخص أمم دار الإسلام، وكتبوا في القرآن والحديث، وفي الفقه تفاصيل شرائع الإسلام، في تاريخ العرب والمسلمين، في الأدب والشعر واللغة، في الفنون والآثار... لهدف واحد لا غير، وهو تصوير الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب بصورة مقنعة للقارئ الأوروبي، وبأسلوب يدل على أنّ كاتبها قد خبر ودرس وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علمي مألوف مدروس لكل مثقف

أوروبي، حتى لا يشك أي قارئ في صدق ما يقرؤه"[13]. ومنه أخذ **الاستشراق** يتمادى ويتخذ توجّهات جديدة بعد أن مُهّدت الأرضية له. فبعد ما كان يدّعي الإطلاع على ثقافتنا ولغتنا وحضارتنا ودِيننا ليستفيد منها وينقلها بصدق إلى المتلقي الغربي من أجل إفادته بالدرجة الأولى، سرعان ما أصبح جزءا لا يتجزأ منها، ففرض لنفسه مكانا فيها ينهل وينقد ويحاجج وينتحل الأفكار والأقوال ما يناسبه؛ لتقوم بذلك مدرسة استشراقية منظّمة مخطط لها مسبقا، تُعنى بالعالم الشرقي العربي عامة واللغة العربية وعلومها على وجه الخصوص.

أ.مناهج المستشرقين في الدراسات العربية[14]

جعلت **الدراسات الاستشراقية** لنفسها مناهج معينة تستند إليها في الدراسات العربية والمباحث الإسلامية للوصول إلى غايات مسطّرة، تختلف هذه المناهج باختلاف ميادين الدراسة والبحث. يقول أحد المستشرقين مبيّنا منهجهم في مجال دراسة العلوم العربية؛ نحن لا نقوم بدراستها لكي نبرهن على ضعف العالم الإسلامي، بل على العكس نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر دون أن نعمل النظر فيه بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على المؤلفات العربية التي تشتغل بهذا المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدوّنة لعالمنا نحن.[15] وهذا القول كاف لبيان المنهج الاستشراقي والغاية منه فأغلب المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة، يريدون تصيّد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمّهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم أرائهم الشّخصية، وكثيرا ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية ومن هنا يقعون في مفارقات عجيبة لولا الهوا والعرض لربأوا بأنفسهم عنها[16]. أما فيما يخص قدرتهم على تطبيق المنهج العلمي وآلياته المختلفة فنحن لا ننكر أنّ بعضهم يمارسه أو أنّهم يمارسونه في بعض مجالات دراستهم وليس في جميعها[17]. يستنتج إسماعيل أحمد عمايرة حسب دراساته لأغلب المؤلفات الغربية التي تناولت العلوم العربية المختلفة، واستنبط أهم المناهج التي اتبعها **المستشرقون**؛ أهمها:

المنهج المعياري: الذي يعنى بالدراسات النصيّة التي ترمي إلى فهم النص من خلال المعايير المستقاة منه بغرض الوقوف على معناه.

المنهج التاريخي: منهج لا يغفل المنطوق ولكنه يهتم بالمكتوب المدوّن أكثر. وهو من أكثر المناهج المتبعة، في الدراسات الاستشراقية. **المنهج المقارن** الذي يبحث عن الظاهرة اللغوية في اللغات الأخرى. وهو المنهج المتبع في قضية التشكيك بأصالة النحو العربي وتأثره بالنحو اليوناني وغيره. **المنهج الوضعي، المنهج التقابلي، المنهج الإحصائي، المنهج الاستقرائي أو القياس.**(وهذه المناهج تستخدم في ميدان العلوم

التجريبية والتطبيقية أكثر منها في العلوم الإنسانية).**المنهج الذاتي.**[18]هذا الأخير أكثر المناهج تتبعا من قبل **المستشرقين** الذين طالما استحضروا ذواتهم وانتماءهم وديانتهم لحظة الدراسة والبحث.

رغم اختلاف هذه المناهج وتنوعها يلتف **المستشرقون** حول المنهج الذاتي تحت غطاء المنهج الموضوعي الاستقرائي، لكن دائما ما يضع هذا المستشرق لمسته الذاتية أو نظرته التعصبية في قراءاته، ولكن من جهة أخرى هناك من هم ذوو البصمة البيضاء الذين يعتمدون على منهج علمي موضوعي معين يقوم على التفسير والتحليل؛ والوصف والاستقراء من أجل دقة النقل والتأليف وحتى التحقيق. فهدفهم هو قراءة التراث العربي الذي عجز أهله -حسبهم - عن قراءته وتصحيحه. فيعمل **المستشرق** أثناء دراسته بعيدا عن ذاتيته على انتقاء المعلومات والأفكار المهمة التي تخدمه، ويقوم بمهمة الفاحص المشخّص لهذه المفاهيم فيغربلها ليقع الرديء منها ويبقى المفيد الصحيح، ومن ذلك تحوريها ودراستها حتى تخرج في صورة جديدة إلى قارئ جديد في بيئة جديدة.

ب.آليات الخطاب الاستشراقي في قراءة كتاب سيبويه[19]

اهتمت الدراسات والبحوث الاستشراقية بالشرق وعلوم العربية وآدابها وكذا المتون اللغوية القديمة التي تمثّل تراث العرب وديوانهم وذاكرتهم الخالدة، فاتّجهت معظم دراساتهم النظرّية والتطبيقية البحث في المدونات اللغوية النحويّة العربية التراثية، ومن ذلك **كتاب سيبويه** الذي كان محط دراسة واسعة من قبل النحاة والدّارسين الغرب. أول ما بحث فيه **المستشرقون** هو أصالة **النحو العربي** ومدى تأثّره بالنحو اليوناني؛ واعتباره امتدادا له، نقلا عنه لبعض أقسامه وأنواعه... وكذا تأثره بالمؤثرات الأجنبية الأخرى، سواء بنحاة آخرين، أو مؤلفاتهم، أو نحوهم بشكل عام. ومن ذلك التشكيك المباشر في أصالته التي كانت بجهود كل من **سيبويه** و الدّؤلي والخليل الفراهيدي وغيرهم من النحاة القدامى. وهذا عين ما ذهب إليه المستشرق فيشر **والمستشرقون** اليهود كطلمون وريفيل **فالنحو العربي في** اعتقادهم قد تأثر حقيقة بمؤثرات أجنبية في مرحلة مبكرة من نشأته، أمّا ما وصل إلينا من هذا النحو ممثلا في كتاب **سيبويه** فهو عربي، وهو يمثّل مرحلة تخليص **النحو العربي** من المؤثرات الأجنبيّة."[20] لا ينفِ المستشرقان تأثر **النحو العربي** بغيره، لكن في بدياته الأولى فقط (مرحلة النشأة والتكوين)، في حين أنهما يستثنيان **كتاب سيبويه** الذي لم يلحقه هذا التأثير، لأنه يمثل مرحلة الأصالة العربية (مرحلة النضج والاكتمال) **للنحو العربي** في آخر مراحله.

من بين النماذج التطبيقية لبيان تأثّر النحو العربي (**كتاب سيبويه**) بالنحو اليوناني(أرسطو) التي قدّمها المستشرقون لإقامة الحجّة والبرهان لدعواهم أنّ كل ما قدّمه **سيبويه** في كتابه من تعريفات لأقسام الكلام والاسم والتمثيل له، والفعل والحرف في النحو العربي كان حسبهم مشابه لما عرّفه أرسطو في النحو اليوناني قديما[21]. "فمن المعروف أن هناك الكثير من وجوه الشبه بين **النحو العربي** والنحو

السرياني، ولعل أبرزها اعتماد النحويين على غرار **سيبويه** تقسيم الكلام إلى الاسم والفعل والحرف أو الرابط. وهذا التقسيم يوناني الأصل اعتمده سيبويه في وقت لم يكن العرب بعد قد اتصلوا فيه بالثقافة اليونانية."[22] ولكن وهذا هو الأصل في دائرة التأثير والتأثر المباشر وغير المباشر في حقل المعارف والحضارات والثقافات وحتى التقاء الشعوب فيما بينها، في زمن لم تولد فيه النظريات والبحوث والقواعد من عدم، وإنما كانت وليدة لحظات اتصال الذوات الأنوية بالآخرية والعكس؛ و**كتاب سيبويه** مثال حي على ذلك؛ لم يأت من عدم وحسبنا أن نعرف أن الكتاب نفسه ذكر طائفة من أسماء من سبقوه،وذكر آراءهم، وقد قام توربو بإحصاء من وردت أسماؤهم في **الكتاب**، فهو ليس نبتا بلا جذور، بل هو ثمرة لشجرة شارك هؤلاء النحاة وغيرهم في رعايتها، على مدى قرن من زمان، تتابعت فيها جهودهم فتمخّضت عن الكتاب.[23] يعدّه فيشر بداية مرحلة جديدة لتنقية **النحو العربي** من الآثار اليونانية حيث نفهم أهمية **كتاب سيبويه** وأثره الباهر في تطور علم النحو في العصور اللاحقة له، إذ أنّ **سيبويه** كان النحوي الذي أبعد ما بقي في **النحو العربي** من آثار الفكر اليوناني، وأقام بذلك **النحو العربي** بطريقة علميّة مستقلّة، وطوى النسيان كل ما كان العلماء قبله يفكرون في اللغة."[24] إنّ المواقف التي قدّمها هذا **المستشرق** وغيره في دراستهم لأصل **النحو العربي والتشكيك في أصالته** وعلاقته بالنحو اليوناني والنحاة الغربيين، ومدى تأثره بالمؤثرات الأجنبية أنه مرّ بمرحلتين: مرحلة التأثر بالنحو اليوناني وهي مرحلة الخليل بن أحمد الفراهيدي، ليكون هجينا بين نحوٍ عربي ويوناني سرياني. ومرحلة **النحو العربي** الخالص يمثّلها **سيبويه** وهي مرحلة جديدة تمثّل أصالته وهويته العربية.

تتميّز أعمال **المستشرقين** عامة كونها تعتمد على الكتب العربية النحوية بشكل خاص، ولذلك كانت بداية جهودهم في القرن الماضي تنصبّ على تحقيق التراث اللغوي، وترجمة بعضه إلى لغاتهم الأصل.[25] من بين هذه الجهود التطبيقيّة أيضا "محاولة العالم الألماني **جوستاف يان** قبل تسعين عاما أن ينقل **كتاب سيبويه** إلى اللّغة الألمانية بعد أن طبع نصا في فرنسا، ولكن هذه الترجمة الألمانية لا تستهل فهمه كثيرا،ولا يفهمها سوى من يفهم الأصل العربي."[26]إلى جانب هذا **المستشرق** يجتهد أحد الباحثين في إعداد بيبليوغرافية جامعة يوضّح فيها أسماء أهم **المستشرقين** المترجمين **للكتاب** ترجمة وافية تستحق الذكر (أقرب إلى النسخة المخطوطة) مع مراعاة التسلسل الزمني والتوزيع الجغرافي في أنحاء البلاد الأوروبيّة.[27] تتفق القراءات النظريّة والتطبيقيّة المعاصرة في الفكر الاستشراقي **لكتاب سيبويه** على الترجمة والتحقيق والجمع للنسخ الأصلية المخطوطة ومقاربتها منهجيا مع النسخ المحققة المطبوعة أو المنشورة، والبحث في العلاقة بين **الكتاب** الذي اعتبر لدى بعضهم مرحلة جديدة للنحو العربي وكتب النحو اليونانية التي قيل أنه أخذ عنها.

عدّ **نيكولا درويل**[28] إلى جانب يوسف الشاري هذه الترجمات والتحقيقات للكتاب كانت على النحو التالي:

ـ دراسة منهج **سيبويه** بتطبيق نظريّات لغويّة معاصرة مثل: دراسة اللهجات المعاصرة ومقارنتها بما نقل منها من الكتاب...

ـ دراسة نص **الكتاب** في سياقه التاريخي من دون الرجوع إلى نظريات معاصرة مثل: دراسة المصطلحات النحويّة وتطوّر معانيها بعد سيبويه، ودراسة الشاهد اللّغوي عند سيبويه...

ـ فصل مادّة معيّنة من **كتاب سيبويه** وتخريجها أو مجرّد تجميعها مثل: تخريج الأبيات الشعريّة، تخريج الأحاديث، مقتبسات الكتاب من النحويين الآخرين التي ليست موجودة من الكتاب، استخدام نص الكتاب مصدرا لأبحاث أخرى في اللّغة...

لا يخفى لدى الباحثين أن لشخصية **سيبويه** النحوية وقدرته على تنظيم القواعد العربية في أبواب كتابه مرتبة ترتيبا منهجيا ما طبع هذه الشخصّية العلميّة فيه، أضف إلى عبقريته ووضعه لمؤلفه (الكتاب) هو الذي أغرى هؤلاء **المستشرقين**، مما حدا بهم إلى الطعن في أصالة النحو العربي،وأصالة كتابه أيضا.[29] والمكانة العلمية والقيمة الكبيرة في ميزان النحو العربي **لكتاب سيبويه** هو ما جعله أيضا **محطّ الدراسات الاستشراقية**، فهو من أهم الإنجازات المدهشة للغاية؛ فمع أنه أول مؤلف في مجاله إلاّ أنّه يعطي صورة متكاملة دقيقة لقواعد العربية لم ينقحها المتأخرون إلا في التفاصيل. ويضاف إلى ذلك أنّ **سيبويه** لا يعدّ القواعد قاعدة بعد قاعدة وإنما يفسّرها ويناقش مشكلاتها على ضوء نظريّة علمية لغوية مستقلة عن النحو اليوناني."[30] بعد هذه الدراسات والبحوث الاستشراقية المختلفة تبقى عبقرية سيبويه منارة تضيء النحو العربي على امتداد العصور، وتجاوز حدود الزمن. كما تخلد مؤلفاته في الذاكرة التراثية العربية؛ وتكون مرجعا أساسيا للنحو العربي الحديث والنظريات اللغوية المعاصرة، والنحاة العرب والغرب على حدّ سواء.

3.خاتمة

وفي ختام بحثنا هذا توصّلنا إلى عدّة نتائج وتوصيات نذكرها في نقاط أهمها:

- ✓ طالما اهتمت **الدراسات الاستشراقية** الحداثية والمعاصرة وحتى القديمة منها بالعالم العربي، والبحث في علومه ومعارفه، والغوص في آفاقه إلى أبعد الحدود، بتبنّي أفكاره ورؤاه ضمن مشروعهم الاستشراقي الحداثي.
- ✓ **الاستشراق** حركة فكرية غربية المنشأ، ونشاط علمي يشتق مصادره من غيره، تحت ما يسمى بالتأثير والتأثر بين الآداب العالمية. وهو أيضا حلقة تاريخية تطوّرية ترتبط أساليبه ومناهجه ووسائله ودوافعه بأهداف مباشرة وغير مباشرة.

- ✓ اعتمدت **الدراسات الاستشراقية** في دراسة الظاهرة اللغوية والنحوية على عدّة مناهج موضوعية وذاتية. ولكن مهما اختلفت الوسيلة إلا أن الهدف والغاية واحد، ألا وهو الوصول إلى نتائج تخدم **الفكر الاستشراقي** الغربي وترضيه.
- ✓ أهم ما انكبت عليه **الدراسات الاستشراقية** بالبحث والتعمق هو التشكيك أولا في أصالة النحو العربي واعتباره امتدادا للنحو اليوناني، ومن ذلك بعض مباحث وأقسام كتاب سيبويه التي تعد في اعتقادهم نسخا ونقلا لما قاله أرسطو في النحو اليوناني. على خلاف هناك من عدّه مرحلة الأصالة العربية وأنموذج تخليصه من تلك المؤثرات.
- ✓ **كتاب سيبويه** من أهم الكتب اللغوية والنحوية التي نالت الحظ الأوفر من **الدراسات الاستشراقيّة** نظرا لمكانته العلمية والتراثية،وعبقريّة مؤلّفه وقدرته العلميّة والمنهجيّة لتبويب القضايا النحويّة في كتابه.

توصيات:

- ✓ الحفاظ على التراث اللغوي والنحوي العربي، من خلال الاطلاع المباشر على تلك الجهود الاستشراقية المختلفة وتسخيرها لخدمة اللغة العربية وعلومها.
- ✓ استثمار الجهود العربية في مقاربة النصوص المحققة مع النسخ الأصلية للكتاب، وتقديم نسخ جديدة محققة بطرق عصرية منهجية، مع مراعاة حفظ حقوق النشر لها.
- ✓ تقديم قراءات معاصرة لكل المؤلفات الغربية ذات البعد الاستشراقي التي قُدمت حول **سيبويه وكتابه** وبيان نقاط التفوق وتصويب الخطأ مستقبلا.

الهوامش:

[1]- سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي عربي، دار الكتاب، د ط، 2004، ص 850-851.

[2]- محمّد محمود داود، المعجم الوسيط، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006، ص 120.

[3]- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، مصر، ط1، 1997، ص 378.

[4]- مازن بن صلاح مطبقاني، الاستشراق، ص 5.

[5]- أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثارها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة،ط1998،1، ص25.

[6]- رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، تر مصطفى ماهر، د ط، دار الكتاب العربي، ص 11.

[7]- إدوارد سعيد، الاستشراق، تر محمد عناني، دار بنجوين، د ط، 1995،ص 44-50.

[8]-مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط 1، 1969، ص 05.

[9]- عامر عبد زيد الوائلي، موسوعة الاستشراق، ابن النديم، الجزائر، ط 1، 2015، ص 20.

[10]- محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، د ط، 1997، ص 55- 56.

[11]- مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق،دط، دت، ص 17-18.

[12]- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية، دار حنين، الأردن، ط 2، 1995، ص 36.

[13]- محمود شاكر، المرجع السابق، ص 59.

[14]- هي الأساليب التي اتبعها المستشرقون في عرض العلوم الاستشراقية إلى الأوروبيين تارة وإلى الشرقيين أنفسهم تارة أخرى. أنظر: سعدون الساموك، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، دار المناهج، عمان، ط 1، 2010، ص 11.

[15]- رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، تر مصطفى ماهر، د ط، دار الكتاب العربي، ص 10.

[16]- مصطفى السباعي، المرجع السابق، ص 55.

[17]- إسماعيل علي محمّد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار الكلمة، القاهرة، ط 6، 2014، ص 138.

[18]- سعدون الساموك، المرجع السابق، ص 32.35.

[19]- هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، وهي نسبة إلى الحارث بن كعب: من قبيلة يمنيّة، كان سيبويه فارسيا، لقبه معناه رائحة التفاح، سمي بذلك لطيب رائحته، أو لجماله وحسن خلقه. له الكتاب الخالد الذي جمع العربية في ترتيب لم يعهد من قبل في علم النحو العربي. أنظر: محمد علي النجار، كتاب سيبويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص 18.8.7.

[20]- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظريّاتهم في نشأة الدراسات اللّغوية العربية، دار حنين، عمان، ط 2، 1992، ص 40-41.

[21]- للإطلاع على هذه الأمثلة كاملة أنظر: إسماعيل أحمد عمايرة، المرجع نفسه، ص 59-60.

[22]- فؤاد حنا ترزي، في أصول اللغة والنحو، دار الكتب، بيروت، د ط، د ت، ص 112.113.

[23]- أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة، ص 50.

[24]- المرجع نفسه، ص 69.

[25]- إسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللّغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1996، ص 302.

[26]- يوسف عبد الله الجوارنة، نظرات في نشأة النحو العربي، مجلّة العلوم العربيّة، الع 41، 1437ه، ص 36.

[27]- جون نيكولا درويل، كتاب سيبويه بين أيادي المستشرقين والعرب، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ط1،2019، ص 09-10.

[28]- المرجع نفسه، ص 25-26.

[29]- حمد الدين عبد الله، مواقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها، مجلّة دراسات أدبية، مج 10، الع 03،2018، ص 33.

[30]- يوسف عبد الله الجوارنة، المرجع السابق، ص 35.

4.قائمة المراجع

1. الزيّات أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، مصر، ط1، 1997.
2. سمايلوفيتش أحمد، فلسفة الاستشراق وأثارها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1، 1998.
3. سعيد إدوارد، الاستشراق، تر محمد عناني، دار بنجوين، د ط، 1995.
4. عمايرة إسماعيل أحمد، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية، دار حنين، الأردن، ط 2، 1995.
5. عمايرة إسماعيل أحمد، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللّغوية العربية، دار حنين، عمان، ط 2، 1992.
6. عمايرة إسماعيل أحمد، بحوث في الاستشراق واللّغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1996.
7. إسماعيل علي محمّد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار الكلمة، القاهرة، ط 6، 2014.
8. درويل جون نيكولا، كتاب سيبويه بين أيادي المستشرقين والعرب، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ط 1، 2019.
9. حمد الدين عبد الله، مواقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها، مجلّة دراسات أدبية، مج 10، الع 03، 2018.
10. بارت رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، تر مصطفى ماهر، د ط، دار الكتاب العربي.
11. الساموك سعدون، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، دار المناهج، عمان، ط1، 2010.
12. إدريس سهيل، المنهل، قاموس فرنسي عربي، دار الكتاب، د ط،2004.
13. الوائلي عامر عبد زيد، موسوعة الاستشراق، ابن النديم، الجزائر، ط 1، 2015.
14. ترزي فؤاد حنا، في أصول اللغة والنحو، دار الكتب، بيروت، د ط، د ت.
15. مطبقاني مازن بن صلاح، الاستشراق، د ط، د ت.
16. ابن نبي مالك، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط 1، 1969.
17. النجار محمد علي، كتاب سيبويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص 18.8.7.
18. داود محمد محمود، المعجم الوسيط، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006.
19. شاكر محمود محمد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، د ط، 1997.
20. السباعي مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق، د ط، د ت.
21. الجوارنة يوسف عبد الله، نظرات في نشأة النحو العربي، مجلّة العلوم العربيّة، الع 41، 1437ه.